صـورة الأنثـى
في
(أيام العرب في الجاهلية)
الوجوه الخفية والأدوار المتناقضة

دكتور / محمود رزق حامد

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين - بدسوق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الأول بلا بداية قبل الليالي والأيام، والآخر بلا نهاية بعد فناء الأنام، والصلاة والسلام على خير نبيٍ أرسل بخير كتاب أُنزل، وجعلنا الله به وبالإسلام خير أمة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر ، ونؤمن بالله، وقص –سبحانه– في كتابه على نبيه أحسن القصص فقال :(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)[١] ، وقال –عز وجل– مخاطباً موسى:(وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ)[٢] ...وبعد.

فالمرأة عالم واسع، وطاقة متجددة، ذات تأثير كبير في محيطها، على اختلاف هذا التأثير، وقد وسمت هذه الدراسة بـ(صورة الأنثى) لما توحيه كلمة الأنثى من تعدد المراحل العمرية لها خلافاً لكلمة المرأة التي ربما أطلقت علي مرحلة ما بعد الزواج، فكل أنثى امرأة ولا عكس، أما في تضاعيف الدراسة فقد زاوجت وناوبت بين الكلمتين في الاستعمال، أما أيام العرب فتعني الوقائع والحروب التي كانت تدور بين قبائل العرب أنفسهم، أو بين قبائل العرب وغيرهم من الأمم والأجناس الأخرى كالفرس وغيرهم، ثم اتسع مدلول الكلمة (أيام العرب) لتشمل الفتوح والمغازي في العصر الإسلامي ، فصار كتَّاب السِّير يقولون يوم القادسية، يوم اليرموك....إلخ قياساً على الأيام الجاهلية .

فمما دار من وقائع وأيام بين قبائل العرب أنفسهم: داحس والغبراء، البسوس، النفراوات، الكديد، ويوم بعاث، كذلك ما حدث بين الأوس والخزرج .

ومما وقع بين العرب وغيرهم كالفرس: يوم الصفقة، ويوم ذي قار الذي انتصرت فيه العرب على كسرى ومن والاه من قبائل العرب الأخرى.

(١) سورة يوسف من الآية ٣ .
(٢) سورة إبراهيم من الآية ٥ .

أما ما جاء في العصر الإسلامي؛ فقد درج أصحاب السِّير –كما سبق– وأصحاب المغازي يقولون يوم بدر، ويوم أُحد، ويوم الأحزاب ، ولا غرو فقد قال الله –تعالى– :(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...)[١] ، فالأيام إذن تعني الحروب، كما تعني الشدائد والمحن ، يقول الزمخشري في تفسير قوله –تعالى– :(وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ...)[٢] أي أنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود، ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها كيوم ذي قار ويوم الفجار وغيرها[٣] .

والأيام تعني أيضا: النصوص المكتوبة التي تروي تلك الحروب، يقول ابن منظور في (لسان العرب) مادة "يوم" نقلا عن ابن السكِّيت بعد أن أقر معنى الحروب والوقائع للفظ الأيام:(وإنما خصوا الأيام دون الليالي في الوقائع لأن حروبهم كانت نهاراً)[٤].

وأدب أيام العرب المعنِي به أيضا : مجموع تلك النصوص التي دونت فيها تلك الوقائع والحروب، والتي أُخذت مشافهة من الرواة قديماً، أو التي سُمعت ودونت في حلقات أشهر المدارس قديماً (مدرستي البصرة والكوفة)، ثم جمعت أخيراً في موسوعات وكتب كبيرة من أمثال: الأغاني لأبي الفرج، العقد الفريد لابن عبد ربه، أو ما جاء عند أبي عبيدة في نقائض جرير والفرزدق، وعند الطبري وابن الأثير، وكذا ما جاء في صبح الأعشى للقلقشندي، أو ما جاء عند النويري في نهاية الأرب، أو عند الميداني في مجمع الأمثال[٥]....الخ .

وأخيراً انتقى محمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم من هذه المصادر مجتمعة مادة لكتابين مهمين، نُشر الأول

(١) سورة التوبة من الآية ٢٥ .
(٢) سورة إبراهيم من الآية ٥ .
(٣) تفسير الكشاف- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ٢/ ٣٦١ ط مصطفى البابي الحلبي – القاهرة ١٩٦٦.
(٤) لسان العرب – جمال الدين بن منظور الإفريقي ٦/ ١٥٦٣ ط دار المعارف .
(٥) باعتبار أن كثيراً من أمثال العرب السائرة كانت وليدة تلك الوقائع والأيام .

تحت عنوان (أيام العرب في الجاهلية) ونشر الثاني تحت عنوان (أيام العرب في الإسلام) .

وهذه الدراسة سوف تعتمد على الكتاب الأول فقط (أيام العرب في الجاهلية)، فهو كفيل بأن يغني الدراسة ويجعل فيها شيئاً من التفصيل، وألا تتحول الدراسة إلى نوع من الإجمال أو الطي السريع للأحداث، أو رؤوس الأقلام –كما يقولون– كتلك المذكرات التي تصنع للطلاب .

وجاءت الدراسة محتوية على مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة .

فالمقدمة: وفيها سبب تسمية الدراسة ولماذا اقتصرت على كتاب(أيام العرب في الجاهلية) وتفصيل أجزاء الدراسة .

أما التمهيد فجاء فيه رصد لبعض العادات الاجتماعية في الحقبة الجاهلية وأثرها على صورة الأنثى في المشهد النثري الجاهلي، ولمحة عامة عن حال المرأة في تلك الحقبة التاريخية .

أما المبحث الأول فعنوانه : الأنثى الحصينة (الحمى غير المستباح) .

وجاء المبحث الثاني بعنوان : المرأة داعية (سبب) الحرب .

ثم كان المبحث الثالث بعنوان : المرأة بين رابطتين .

والمبحث الرابع بعنوان : الأنثى الجائزة .

ثم الخاتمة : وفيها بعض النتائج والاستخلاصات .

وقائمة بالمصادر والمراجع والفهارس .

والله الموفق والمستعان

د. محمود رزق حامد

تمهـــيد

(١)

العودة بقراءة التقاليد السائدة في حقبة ما، أو العادات الاجتماعية في زمن ما لا سيما تلك الحقبة التاريخية التي أطلق عليها المؤرخون (العصر الجاهلي) تستدعي دقة علمية ومعرفية للكشف عما قد يبدو مجهولاً أو ملتبساً في حياة العرب حينذاك، وأخص أحوال المرأة (الأنثى عموما ابنة وأخت وزوجة وأم ، حرة وأمة) إذ إن المرأة في شبه الجزيرة العربية كانت أحوالها – في تلك الفترة – تشي بصورتين :

الأولى : صورة الأنثى المقهورة مهدورة الكرامة، مسلوبة الحقوق، وأول حقوقها المسلوبة المهدرة هو حق الحياة، فقد كان الأب يئد ابنته التي تجلب له الدنس والعار – من وجهة نظره المرتبطة بالعرف القبلي – وكان في مكة – على سبيل المثال – جبل يقال له "أبو دلامة" كانت قريش تدفن فيه البنات[١] ، وقد صور القرآن الكريم تلك الصورة الشنيعة في قوله تعالى :(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)[٢]

وربما فعل الأب فعلته تلك لأنه كان يعطي نفسه حقوقاً على أولاده ومن هذه الحقوق: أنه يملك على أولاده حق الحياة والموت، يقتلهم إذا شاء أو يقدمهم قرباناً للرب[٣] إذا أراد .

وإذا ظلت الأنثى في الأحياء (على قيد الحياة) فقد تُسلب حقوقاً أخرى إذا شبَّت؛ تحيلها إلى مجرد سلعة تجلب المتعة وتهدف إلى إشباع

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٩٦/٥ ط دار السافي ط٤ عام ٢٠٠١م .
(٢) سورة النحل آية ٥٨، ٥٩ .
(٣) هذا ما فعله عبد المطلب - جد النبي - مع ابنه عبد الله حين نذر إن هو أنجب من البنين عشرة أن يذبح أحدهم قربانا ،ثم افتداه بعدد من الإبل غير قليل (والقصة معروفة) .

رغبات الذكور، يؤكد هذا أنواع الأنكحة التي كانت سائدة آنذاك كالضيزن ويسمى (زواج المقت)، وهو أن ينكح الابن زوجة أبيه بعد وفاته، أو يلقي عليها ثوبه فيمتلك حرية زواجها أو منعها حتى تموت فيرثها، ونكاح المتعة وهو نكاح مؤقت بمقابل مادي فرضته ظروف التنقل والأسفار والحروب، ونكاح البدل وهو تبادل الزوجتين بين الرجلين، ونكاح الاستبضاع وهو إرسال الرجل زوجته إلى آخر معروف بالشجاعة والنجابة لتحمل منه، ونكاح الرهط وهو تقاسم الرهط من الرجال المرأة الواحدة برضى منها حتى تحمل فتُلحق الحمل بمن أرادت منهم ولا يرد كلمتها، ولا يُنكر ذلك .

إلى غير ذلك من الحقوق المسلوبة الأخرى كالإرث ،والمكانة في القبيلة ...إلى آخر الأشياء التي كانت تُظهر الأنثى تأكل ولا تقتل عن القبيلة، بل وتظهرها مجلبة للعار عند أسرها فيفترشها آسرها عنوة واقتداراً، أو حتى طواعية واختيارا .

إذن.. فقد كانت الأنثى – حسب تلك الصورة – في ذلك المجتمع عرضة غبن وحيف، تؤكل حقوقها، وتُبتز أموالها، وتحرم إرثها، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه، بل وتورث كما يورث المتاع أو الدابة .

الثانية :صورة الأنثى ذات الأثر في النظام القبلي، والمجتمع الصحراوي، تلك الأنثى التي تنشأ في الحلية، وتنحدر من أصول عريقة ونسب رفيع، ترفل في الحرير، وتلبس الديباج، وتتزين بالجواهر ،آخذة من الراحة والدعة بأوفر الحظ والنصيب، إنها لم تكن لتسافر تحت أشعة الشمس الحارقة كما يحدث لمثيلاتها من لداتها ونساء عصرها، بل تحظى بالخدمة (نؤوم الضحى)، تحجب عن العوامل التي تتسم بالقسوة، تتعطر بأطيب العطور، حرة تُنزلها القبيلة والعشيرة منزلة رفيعة، تشارك الرجل في

كل ما يعن لمجتمعه، تستشار في اختيار الزوج، وربما اشترط بعضهن – لشرفهن وقدرهن – أن يكون حق التطليق بأيديهن، فإن أصبحن عند زوج كان أمرهن إليهن، إن شئن أقمن وإن شئن تركن .

وربما بلغ الأمر أكثر من ذلك فتشير المرأة برأيها في قرارات القبيلة الحاسمة سلماً وحرباً، وينزلون على رأيها، ولا يغيب عن البال أن بعض العرب نُسب إلى أمه تشريفاً له، كذلك نُسب بعض ملوكهم إلى أمهاتهم تكرمة للمرأة، وإجلالاً لقدرها، كمثل الملك عمرو بن هند والذي في قصة مقتله – كذلك –ما يشير إلى مكانة المرأة لدي العرب، فقد كان سبب قتله إهانة وجهتها أمه لأم عمرو بن كلثوم في قصة مشهورة خلدها ابن كلثوم في شعره حين قال :

بـأي مشـيئة عمـرو بـن هنـد تطيـع بنـا الوشـاة وتزدرينـا

بـأي مشـيئة عمـرو بـن هنـد تـرى أنـا نكـون الأرزلينـا

تهـددنا وأوعـدنا رويـدا متـى كـنا لأمـك مقتوينـا[1]

وربما أشارت المرأة أو أجارت فيُنزل على رأيها، ولا يرد جوارها ولا تخفر في ذمتها .

إذن .–حسب تلك الصورة – فقد كانت المرأة في الجاهلية بمكانة ومنزلة سامقة، تسهم وتشارك في معظم ما يعرض للقبيلة وللمجتمع القبلي سلماً وحرباً، سلماً في المسكن والملبس والمطعم .وحرباً في التأييد والتشجيع والحث، وفي الميدان بتضميد الجرحى، وحمل الماء إلى المقاتلة، وحمل السلاح حين يستدعي الأمر ذلك حتى لو كان السلاح هو الهراوة.

(١) ديوان عمرو بن كلثوم، صـ ٧٩ جمع وتحقيق وشرح إميل بديع يعقوب ،ط ١ الناشر دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٩١م .

(٢)

بان إذن أن للمرأة في الجاهلية وجهين متناقضين أو يكادا، الأول :وجه المرأة المتاع التي كُرست لتلبية رغبات الرجال أو العادات القبلية، الثاني :المرأة المؤثرة نسبياً ذات الدور الفاعل في محيطها من الحي سلماً وحربا .

–لم تذكر المصادر ولا كتب الأخبار ما يفيد رئاسة المرأة للقبيلة مثلاً ولا سيادتها عليها[١] ، غير أن بعضها يقدم صورة عن الدور الذي لعبته المرأة والأنثى عموماً في الحياة السياسية والعسكرية بوصفها زوجة لسيد القبيلة أو أمه أو أخته أو ابنته .

فالمرأة كانت وسيلة من وسائل توثيق عُرى السلام والتحالف بين القبائل عن طريق المصاهرة والزواج والإملاك، وعلى ذلك تكون المرأة وسيلة في عقد المصالحات وإقرار السلام، وربما صارت المرأة تارة أخرى سبباً مباشراً في التناحر والاقتتال، وما حرب البسوس[٢] التي سميت باسم المرأة التي أثارتها إلا صورة لذلك .

–شكلت المرأة – في الجاهلية – باعثاً لحرب القبائل؛ لكن في مقابل ضريبة الشرف الدموي؛ وكانت في الوقت نفسه داعية سلام، مرغبة في رد الإساءة بالإحسان كما عند سعدى أم أوس بن حارثة مع بشر بن أبي خازم، أو ذات همة ورغبة في عقد الصلح بين قبائل العرب وأحيائهم، فمن بين الأخبار التي ترويها المصادر؛ قصة بهيسة بنت أوس بن حارثة الطائي، فبعد زواجها من الحارث بن عوف وحملها إليه في حماه؛ كانت حرب (داحس والغبراء) قد اشتد أوارها بين عبس وذبيان ،فلما جاء إليها ليلة عرسه منها ورأته مرتدياً مطارف العرس ، قالت : والله لقد ذكرت من

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - جواد علي ٦١٦/٤ .

(٢) هي البسوس بنت منقذ ، وقد نزلت ضيفة على ابن أختها جساس بن مُرَّة ومعها ناقة حسنة ولها فصيل، وكان ما كان من أمر كليب وائل، إذ رمى فصيل الناقة فقتله، ثم رمى الناقة في ضرعها ، وأجلى أهل جساس عن الماء حتى كادوا يموتون عطشاً، فقتله جساس جراء كل ما فعل ، وكانت شرارة الحرب بين الحيين البكري والتغلبي التي استمرت سنوات طويلة .

الشرف ما لا أراه فيك، قال : وكيف؟! قالت :أتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضهم بعضاً؟ قال :فيكون ماذا؟ قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم، فخرج لساعته إلى صاحبه خارجة بن سنان، وقص عليه حديث امرأته، فقال : والله إني لأرى همة وعقلا، ولقد قالت قولا، فخرج الرجلان، ومشيا بين القوم بالصلح ، وحملا حمائل (ديات) القوم وديات قتلاهم، فكان ما نزلا عنه ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنوات[١] .

إن زعامة النساء للقبائل العربية قبل الإسلام من الندرة بحيث لا نجد له مثالاً– على الأقل في الكتاب المعني بالدراسة (أيام العرب في الجاهلية)– لكن ثمت شواهد تاريخية تبرهن على وجود دور خفي مسكوت عنه للمرأة، فثمت امرأتان هما: رقاش الطائية، وسجاح بنت الحارث التميمية ؛ أوردت الأخبار أن الأولى كانت ذات حزم ورأي ونفوذ، وكانت تغزو بقومها، وأغارت بهم على إياد بن نزار بن معد، وظفرت بهم وغنمت منهم وسبت، والثانية لم تقد قبيلة واحدة؛ وإنما قادت حلفاً قبلياً لتقف في وجه الإسلام في حروب الردة[٢] .

وعلى الرغم من شح المصادر العربية حول القيادة السياسية للمرأة قبل الإسلام؛ إلا أن القرآن الكريم يورد قصة بلقيس (ملكة سبأ) القوية – في سورة النمل– والتي حكمت اليمن حكماً شورياً (ديمقراطياً)، إذ أثبت القرآن أنها كانت تستشير مجلسها من الرجال وتسمع إليهم ...وعندما آل المُلك إليها في البداية ازدراها قومها، لكنها –بالحيلة– استطاعت الحفاظ على عرشها وتثبيت أركانه[٣] .

وهناك وجه آخر للأنثى في الجاهلية، وهو الوجه الدموي في الحرب والكرب ، والذي امتد من الجاهلية إلى مجيء الإسلام، فيذكر أصحاب السير أن هند بنت عتبة –زوج أبي سفيان بن حرب– لعبت دوراً دموياً في

(١) الأغاني -أبو الفرج الأصفهاني ١٤٢/٩ ط دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٢٧م.
(٢) أعلام النساء - عمر رضا كحالة ٣٨٣/١ ط دمشق ١٩٤٠م .
(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٠٢/٢ بتصرف .

الحرب ضد النبي –صلى الله عليه وسلم– فلما انهزم الكفار في بدر أمام المسلمين ووترت هند في أبيها وعمها (عتبة وشيبة ابني ربيعة)؛ وجاءتها الفرصة لتثأر في معركة أُحد؛ تذكر كتب التاريخ أن هنداً كانت تتخذ من النساء خلفها ما يشبه (الجوقة) يرددن ما تقول تشجيعاً للرجال على القتال والاستبسال، ولما قَتل عبدها (وحشي) حمزة بن عبد المطلب عم الرسول– صلى الله عليه وسلم– بقرت بطنه ولاكت كبده غيظاً ومثلت به، حتى أنها غنت ورقصت بين جثث القتلى متمثلة الأبيات التي تقول فيها:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
الدر في المخانق والمسك في المفارق
إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق (١)

وبهذا يتضح أن للأنثى في الجاهلية دوراً قوياً مشهوداً معلوماً في السلم والحرب، وليس كما صورت بعض المصادر المرأة بمعزل عن كل ما يجري في حيها وقبيلتها ومجتمعها .

–كانت هذه إلمامة عامة عن حال المرأة في تلك الحقبة التاريخية المعروفة بالجاهلية، ورصد لواقع تلك الحالة بجانبيها الإيجابي (المشرق)، والسلبي(المعتم)، لتصبح الصورة مكتملة، ومجسدة لواقع تلك الحياة الاجتماعية للمرأة في الموروث الجاهلي .

وفيما يلي ورصدًا لصورة الأنثى من خلال كتاب (أيام العرب في الجاهلية) .

(١) الأبيات رجز مشاع بين القبائل ،يتمثل به القوم لتشابه الحال، وقد قالته نساء بكر لبعولتهن يوم ذي قار فانهزمت الفرس .

المبحث الأول: الأنثى الحصينة (الحمى غير المستباح)

بداية ..إن المطالع لأدب أيام العرب وأخبارهم في الجاهلية؛ لا يجد مشاركة دائمة من المرأة في تلك الأيام جميعها، فلا ظهور لها إلا في نصف الروايات والأيام تقريباً .

لكن وإن كانت مشاركتها العملية الفعلية قليلة؛ فإن وجودها في خلفية الحدث والقصة يكاد يكون مستمراً دائماً، إما في صورة الأم –كما سبق في الحديث عن عمرو بن هند– أو الزوجة، أو الأخت، أو الابنة، وربما كانت في صورة وظيفة عامة –إن صح التعبير–هي وظيفة (الحريم) اللائي يمثلن الحمى وبيضة الدار ، وبناء على ذلك يكون الحفاظ عليها وحمايتها من كل ضرر، وتحصينها من كل اعتداء فرض واجب، وحق لازم .

وللوهلة الأولى قد نستغرب غياب صورة المرأة المعشوقة، أو القصص الغرامية وروايات العشق والهيام في روايات (أيام العرب في الجاهلية)، فالأبطال في الأحداث حتى وإن كانوا ذوي غرام؛ أو عُرف عنهم ذلك في الأوساط العربية الجاهلية –حينذاك– مثل شباب قريش وكنانة، إلا أنهم في روايات (الأيام الجاهلية) ليسوا مغرمين، ولا عاشقين، ولا يخبرنا أي نص من النصوص الواردة في قصص (أيام العرب) عن حبيبة للبطل أو معشوقة له يقاتل من أجلها فحسب، أو حتى يحاول الهروب بها، والفكاك من إسار أهلها لأنهم –فقط – منعوه من التزوج بها ، هذا الغياب لقصص العشق والغرام في روايات الأيام جاء خلافاً لما عهدناه –مثلاً– في السير الشعبية التي تزخر بالمغامرات الغرامية، وقصص الحب والعشق التي تصل إلى حد الخيال، والتي نُسجت كلها (السيرة الشعبية) حول الحدث الأبرز فيها وهو عشق البطل للبطلة

المحبوبة إلى حد الجنون، ومن أجلها يفعل أي شيء ولو كانت التضحية بالنفس وإهلاكها، وذلك مثل قصة عنتر وعبلة[١] في السير الشعبية المعروفة،

وقصة "الجازية"[٢] في سيرة بني هلال، أو سيرة الأميرة ذات الهمة والبطال[٣] ، والتي وضعها مؤلفوها في وسَطٍ أموي إسلامي[٤]، وغيرها من القصص الشعبية التي تظهر المرأة أو الأنثى عموماً محوراً للحدث، والكل يدور في فلكها ،ويحدث كل شيء من أجلها .

فهل معنى هذا أن كل روايات (أيام العرب في الجاهلية) خالية من صورة الأنثى المعشوقة أو المحبوبة التي من أجلها تدور الأحداث ؟

وبنوع من التدقيق وللإجابة على هذا السؤال توضيحاً نقول: ربما نجد مثالاً أو مثالين من مغازلة الشباب للنساء، كما في مثال العامرية التي انكشف ثوبها عن ظهرها في سوق عكاظ، وقامت من أجل حمايتها والدفاع عن عرضها المداس وكرامتها المهدورة الحرب في يوم الفجار الثاني[٥] فقد جاء في الأيام: (أن شباباً من قريش وكنانة كانوا ذوي غرام،

(١) قصة شعبية مأخوذة عن شخصيات حقيقية هي عنترة بن شداد العبسي، وابنة عمه عبلة، وكان يحبها حباً شديداً، واشترط أبوها لزواجه منها مهراً كبيراً من النياق الحمر التي لا توجد إلا في بلاد بعيدة ، ربما ذهبت نفسه وهو يمر بفيافيها أو وهو يقاتل لإحراز تلك النياق وإحضارها .

(٢) الجازية : واسمها الأصلي نور بارق تزوجت أكثر من مرة، وعشقها دياب بن غانم أحد أمراء بني هلال وأحد أشهر فرسانهم وشعرائهم ، وكانت الجازية مدبرة أمور الهلايل ، كما كانت على عكس أبطال السير الشعبية، فلم تكن فارسة ولا مقاتلة ، وتكن قوتها في أنوثتها وجمالها الفاتن وعقلها الراجح ورأيها السديد

(٣) الأميرة ذات الهمة والبطال عمل شعبي ، فيه من العناصر الخارقة والتقاليد الشعبية الكثير ، والبطال اسم لرجل كان بطلاً شجاعا مغواراً يسمى عبد الله البطال .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٢٤٠/٢ (ميتودش صاحب فصل أيام العرب) ط الشارقة عام ١٩٩٨م.

(٥) يوم الفجار الثاني بين قريش وكنانة وقيس، وانتهى بصلح توسط فيه حرب بن أمية، وسميت الحرب في ذلك اليوم بالفجار لأنها كانت في الأشهر الحرم، وهي الأشهر التي يحرمونها ففجروا فيها، وهي فجاران، الأول ثلاثة أيام ،والثاني خمسة أيام في أربع سنين، وقد حضر النبي -صلى الله عليه وسلم-يوم عكاظ مع أعمامه وكان يناولهم النبل، وانتهت ٥٨٩م (ينظر أيام العرب في الجاهلية ٣٢٤-الكامل لابن الأثير ٣٥٩/١-العقد الفريد لابن عبد ربه ٣٦٨/٣- تاريخ العرب في الجاهلية لجورجي زيدان ٢٤١- الأغاني لأبي الفرج ٧٤/١٩- سرح العيون لابن نباته ٢٨٥- شواعر العرب ٦١)

فرأوا امرأة من بني عامر وضيئة حُسَّانة[١] بسوق عكاظ وهي فُضُل[٢] ، وعليها برقع لها، وقد اكتنفها شباب من العرب وهي تحدثهم، فجاء الشباب من قريش وكنانة وأطافوا بها، وسألوها أن تسفر فأبت، فقام أحدهم فجلس خلفها، وحلَّ طرف ردائها، وشده إلى فوق حجزتها[٣] بشوكة –وهي لا تعلم– فلما قامت انكشف درعها[٤] عن ظهرها، فضحكوا وقالوا: منعْتِنا النظر إلى وجهك، وجُدت لنا بالنظر إلى ظهرك، فنادت :يآل عامر! فساروا وحملوا السلاح، وحملته كنانة واقتتلوا، ووقعت بينهم دماء يسيرة، فتوسط حرب بن أمية واحتمل دماء القوم، وأرضى بني عامر عن مُثْلة صاحبتهم)[٥] .

ومثال آخر وهو تعرض معاوية بن الشريد (أخي الخنساء) إلى أسماء المُرِّية بسوق عكاظ – ويبدو أن سوق عكاظ كانت تشجع على مثل تلك المضايقات – فكانت مخاطبته لها منطلق يوم حوزة الأول[٦](فبينا هو يمشي بسوق عكاظ؛ إذ لقي أسماء المرِّية، وكانت جميلة، فدعاها لنفسه فامتنعت عليه، وقالت: أما علمت أني عند سيد العرب هاشم بن حرملة؟ فأحفظته، فقال: أما والله لأقارعنَّه عنكِ! قالت: شأنك وشأنه ...)[٧] .

فالأمر هنا لا يعدو أن يكون ميلاً مؤقتاً، أو رغبة طارئة، فلا غرام، ولا هيام، ولا شغف، وإنما مجرد رغبة وميل عابر كما يظهر من جواب أسماء المرية (وهي الأنثى المعتزة بمكانتها الاجتماعية) عند سيد العرب

(١) الحسانة : المرأة الجميلة الحسنة .
(٢) يقال امرأة فضل : أي في ثوب واحد
(٣) الحجزة : معقد الإزار من السراويل
(٤) الدرع : القميص
(٥) أيام العرب في الجاهلية صـ ٣٢٤ .
(٦) يوم حوزة الأول لسليم على ذبيان، وحوزة واد بالحجاز(الأيام ٢٨٣)، وينظر(الأغاني ٣٢٩/٢، العقد الفريد ٣٢٠/٣) .
(٧) أيام العرب في الجاهلية صـ ٢٨٣.

–على حد قولها– ومن قَسَم معاوية بن الشريد (أما والله لأقارعنه عنك) وهو الشخص الذي أحس أنه في موقف المُتَحدَى، أو كأن رجولته وفتوته قد خدشت (فأحفظته) ،فصار كالأسد أثيرت حفيظته .

وقد منَّيت النفس أن أجد في خبر يوم (البرادان)[١] الذي اختطف فيه زياد بن الهبُّولة[٢] هنداً بنت ظالم زوجة حُجر الكندي[٣] صورة لتلك الأنثى التي اختطفها حبيبها من قومها بعد أن يتمكن الحب من قلبيهما، ويأبى قومها أن يزوجوها له، أو أن يتصل ما بينهما، كتلك الحالة– في الأدب العالمي – الشبيهة باختطاف هيلانة الإغريقية على يد الشاب الطروادي (باريس)[٤] بعد أن تمكنت أواصر العشق والوله من قلبيهما، فكانت سبب ومنطلق حرب طروادة الشهيرة ومصدر الإلياذة[٥] ولكن خاب خاب الظن لأن الأنثى هنا وهي (هند) وإن كانت تبغض زوجها (حُجر

(١) يوم البرادان يوم لحجر آكل المرار (من كندة) على زياد بن الهبُّولة (من قضاعة)، والبرادان: علم على مواضع كثيرة ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان، ولم يبين الموضع الذي وقع فيه ذلك اليوم . ينظر(الكامل ٣٠١/١ -الأغاني ٨٢/١٥) .

(٢) كان زياد بن الهبولة ملكاً على الشام، وكان من قضاعة .

(٣) حجر بن عمرو: يعرف بآكل المرار، وهو جد امرئ القيس ، استعمله تُبَّع ملك اليمن، ولم يزل ملكاً ملكاً حتى خرف .

(٤) تدور أحداث الأسطورة في اليونان حول ربة الجمال (الزهرة)، التي ترسل رسالة إلى (كلكاس) رئيس كهنة معبد المشتري تأمره فيها بأن يسلم (هيلانة) ملكة = =أسبرطة إلى (باريس) ابن بريام ملك طروادة؛ لأنها حكمت بحبهما. وبالفعل يحضر باريس ويقع في غرام هيلانة التي بادلته الغرام أثناء غياب زوجها مينيلاس؛ ملك أسبرطة. وعندما يحضر الزوج ويضبط زوجته في أحضان باريس، يفضحهما في حضور جمع من الملوك. ويعيش الزوج في أزمة نفسية ليقينه بحدوث الخيانة من قبل زوجته هيلانة، وزوجته تحاول إقناعه بأن ما حدث حدث في المنام لا في اليقظة. وعندما تعلم «الزهرة» تقسو على اليونان بأكملها، بأن ترسل إلى أهلها لعنة هروب الزوجات من أزواجهم! فيتدخل الملوك وأنصاف الآلهة والشخصيات الأسطورية أمثال أجاممنون، وأخيل، وأجاش في محاولة إقناع مينيلاس بأن يتنازل عن زوجته لباريس إرضاء للزهرة وإبعاد اللعنة عن شعبه؛ ولكن الزوج تحايل على الأمر بأن أرسل رسالة إلى كبير كهنة معبد الزهرة، يطلب منه الحضور من أجل التفاهم والبحث عن حل آخر يرضي الزهرة. وبالفعل يحضر الكاهن الأعظم في سفينة ضخمة، ويقترح على (مينيلاس) أن يأخذ زوجته (هيلانة) إلى جزيرة نائية تنحر فيها عشرة عجول بيضاء قرباناً للزهرة، باعتبار أن ذلك حل بديل لترضيتها.ويوافق مينيلاس والشعب اليوناني، وتستقل هيلانة السفينة برفقة الكاهن، الذي ما لبث أن كشف عن حقيقته لمينيلاس وشعبه - بعد أن أبحرت السفينة - بأنه العاشق باريس!وهنا ثار مينيلاس وشعبه وتوعدوا باريس بأنهم سيذهبون إليه ويهدمون عليه مدينة طروادة.

(٥) ملحمة شعرية تحكي قصة حرب طروادة وتعتبر مع الأوديسا أهم ملحمة شعرية إغريقية للشاعر الأعمى هوميروس المشكوك في وجوده أو أنه شخص واحد الذي كتب الملحمة وتاريخ الملحمة يعود إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد .وهي عبارة عن نص شعري. ويقال أنه كتبها مع ملحمته الأوديسأ .وقد جمعت أشعارها عام ٧٠٠ ق.م .بعد مائة عام من وفاته. وتروي قصة حصار مدينة طروادة .

بن عمرو) فهي في الوقت نفسه لا تحب خاطفها وآسرها (زياد بن الهبولة) ، كذلك الخاطف نفسه لم يسبِ المرأة لرغبة فيها جامحة، وإنما فقط ليقهر زوجها، (كان حجر بن عمرو بن معاوية الكندي قد أغار في كندة وربيعة على البحرين، فبلغ زياد بن الهبولة خبرهم، فسار إلى كندة وربيعة وأموالهم، وهم خلوف[١] ، ورجالهم في غزاتهم المذكورة، فأخذ الحريم والأموال، وسبى منهم هند بنت ظالم زوج حجر، وسمع حجر بغارة زياد فطلبه ... فأقبل حجر في أصحابه حتى إذا كان بمكان يقال له الحفير؛ أرسل سدوس بن شيبان، وصليع بن عبد غَنْم يتجسسان له الخبر، ويعلمان علم العسكر ... ثم انصرف صليع إلى حُجر فأخبره بعسكر زياد ... وأما سدوس فقال: لا أرجع حتى آتيه بأمر جلي، وجلس مع القوم يتسمع ما يقولون، وهند امرأة حجر خلف زياد، فقالت لزياد: إن هذا التمر أهدي إلى حجر من هجر، والسمن من دومة الجندل، ثم تفرق أصحاب زياد عنه، فضرب سدوس يده إلى جليس له، وقال له: من أنت؟ مخافة أن يستنكره الرجل، فقال :أنا فلان ابن فلان، ودنا سدوس من قبة زياد بحيث يسمع كلامه، ودنا زياد من هند امرأة حجر فقال لها: ما ظنك الآن بحجر؟ فقالت: ما هو بظن، ولكنه يقين ، وإنه والله لن يدع طلبك حتى يطالع القصور الحُمر –تعني قصور الشام– وكأني به في فوارس من بني شيبان يذمرهم ويذمرونه[٢]، وهو شديد الكلب تزبد شفتاه، وكأنه بعيرٌ آكلٌ مُراراً[٣] فالنجاء النجاء، فإن وراءك طالباً حثيثاً، وجمعاً كثيفاً، وكيداً متيناً، ورأياً صليباً، فرفع يده فلطمها، ثم قال لها: ما قلت هذا إلا من عجبك به، وحبك له، فقالت: والله ما أبغضت ذا نسمة قط بغضي له، ولا رأيت رجلاً أحزم منه نائماً ومستيقظاً، إن كان لتنام عيناه فبعض

(١) خلوف: ذهبوا عن الحي .
(٢) ذمره : لامه وحضه وحثه .
(٣) المرار: شجر مر إذا أكلته الإبل قلصت عنه مشافرها، قيل سمي حجراً آكل المرار من يومئذ، وقيل السبب في التسمية غير ذلك .

أعضائه
مستيقظ ...)[١] .

وقد خلت (أيام العرب في الجاهلية) – أيضا– من صورة الأنثى التي تُسبى لإشباع حاجة جنسية لدى الرجال، فتلك الصورة ليست موجودة في الأيام، بل إن أخبار الاغتصاب نادرة، على خلاف ما قد يتصور البعض من أن القوم لم يكن لديهم وازع من دين يردهم ويردعهم، أو أخلاق تزجرهم وتمنعهم، ولا يوجد في (الأيام) إلا مثال واحد جاء في إضافات كتاب (النقائض) لأبي عبيدة معمر بن المثنى البصري، ولم يُذكر صراحة في (الأيام)، وهو اغتصاب طارئ كأنه غير مقصود، وكان ذلك في يوم رَحْرحَان[٢] ، وقصة هذا الاغتصاب أن العامريين استعدوا لغزو تميم لأنها آوت الحارث بن ظالم المُري قاتل خالد بن جعفر الكلابي العامري، وخرجوا إليهم وفيهم كثير من وجوههم، يزعمهم الأحوص بن جعفر الكلابي أخو خالد بن جعفر (المقتول)، ولما صاروا بأدني مياه بني دارم؛ لقوا في طريقهم امرأة تجني الكمأة[٣]، ومعها جمل لها، فخافوا أن تنذر بهم قومها فمسكوها، فأخذها رجل منهم وسألها عن الخبر، فأخبرته بمكان الحارث بن ظالم عند حاجب بن زرارة، وما وعده من نصره ومنعته، ثم خافوا إن هم أطلقوها أن تنذر بهم قومها، فدفعها الأحوص إلى الغنوي وقال: (اكفتها الليلة، وإياك أن تفلت! فوطئها الغنوي ثم نام، وقامت المرأة إلى جملها فركبته، وذهبت على ووجهها، وسارت حتى صبحت بني دارم، فأتت قومها فلم تستطع أن تنطق، وقصدت سيدهم

(١) أيام العرب في الجاهلية صـ ٤٤ .
(٢) يوم رحرحان: يوم لعامر على تميم، ورحرحان : اسم جبل قريب من عكاظ خلف عرفات ، ينظر (الكامل ٣٤١/١- العقد الفريد ٣٦٠/٣- النقائض ٢١٤- الأغاني ٣٠/١٠).
(٣) الكمأة : نبات ينمو عقب الأمطار ويسمى أيضا الفقع .

حاجب، فقال بعضهم: اسقوها ماءً حاراً فإن قلبها قد برد من الفرَق، ففعلوا ثم تركوها حتى اطمأنت من الفرق فأخبرتهم الخبر...)[1] .

فالأنثى هنا لم يُستبح حماها ،ولم تُغتصب قصداً للقهر والإذلال أو إشباع رغبة لدى الرجال؛ بل بقصد التعمية وعدم التمكين من إنذار حيها .

ولا يخفى على القارئ أن النزعة الأخلاقية، ومنزع المروءة والحياء الذي ينزع إليه رواة الأيام؛ يمنعهم من أن يتبسطوا في هذه المشاهد القبيحة، أو أن يكثروا من وصف ما يدور في تلك المشاهد التي تكون فيها المرأة مجرد فريسة مقهورة لنهم الرجال .

بل –وعلى العكس– إن الصورة الغالبة للمرأة في روايات (الأيام الجاهلية) صورة كائن محترم، صنو للرجل في حدبه على مناعة الحي، وشرف القبيلة، وخلوص النسب، يبذل الرجل حياته دونها ولا يخلص إليها مكروه .

والمرأة مشاركة للرجل في (الأيام) بصورة فعلية أو في خلفية الأحداث

فأما الدور الفعلي، فيتمثل في سقي المقاتلة، وإسعاف وتمريض الجرحى –كما نقول بتعبيراتنا الحالية– حين الاقتتال، وتضميد جراح المصابين، وربما حملت القتلى من قومها إذا كان الرجال في شغل عن ذلك، جاء في يوم هَرَامِيت[2] (... وانهزمت بنو جعفر، وطردتهم الضباب

(١) أيام العرب في الجاهلية صـ ٣٤٤، النقائض صـ ١٠٦ بتصرف .
(٢) يوم هراميت : يوم للضباب على بني جعفر (وكلاهما من بني عامر)،، والهراميت: آبار مجتمعة بناحية الدهناء، ينظر (معجم البلدان ٤٥٠/٨) .

بعيداً، فاحتملت قتلاها، وهابت بنو جعفر أن تنقل قتلاها حتى بعثوا النساء يحملن القتلى ...)[١] .

وقد تُكلف الأنثى –أيضا– بعمل مباشر في الحرب كالرجال سواء بسواء، كما حدث في يوم تحلاق اللمم[٢](يوم من أيام حرب البسوس):(... ثم ارتحل الحارث مع قومه حتى نزل مع جماعة من بكر بن وائل، وعليهم يومئذ الحارث بن همام، فقال الحارث بن عباد له: إن القوم مستقلون قومك، وذلك زادهم جرأة عليكم، فقاتِلْهم بالنساء، قال الحارث بن همام: وكيف قتال النساء؟ فقال : قلِّد كل امرأة إداوة[٣] من ماء، وأعطها هراوة، واجعل جمعهن من ورائكم، فإن ذلكم يزيدكم اجتهادا، وعلِّموا قومكم بعلامات يعرفنها، فإذا مرت امرأة على صريع منكم عرفته بعلامته فسقته من الماء، ونعشته، فإذا مرت على الرجل من غيركم ضربته بالهراوة فقتلته، وأتت عليه، فأطاعوه، وحلقت بنو بكر يومئذ رؤوسها استبسالاً للموت، وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم ...)[٤]

إن مجرد وجود المرأة مع المقاتلين خلف الصفوف أو حتى بين الأمتعة والذراري والأموال لهو خير حافز للرجال على الاستبسال، فيجالدون ويصابرون، لا سيما إذا حرضنهم بالأناشيد والأراجيز ودق الطبول، كما كانت تفعل النساء البكريات يوم ذي قار ، وكما فعلت هند بنت عتبة ومن معها من النساء في يوم أُحُد (نحن بنات طارق...)

وربما نادت النساء بألفاظ وأشعار أخرى تشجع الرجال، وتبث فيهم روح الصمود والإقبال، فتتحول الهزيمة إلى انتصار بفضل هذه النداءات،

(١) أيام العرب في الجاهلية صـ ٣٠٦ .
(٢) تحلاق اللمم من أيام حرب البسوس، وسمي بذلك لأن العلامة التي كانت بين رجال القوم ونسائهم حلق الرؤوس ليعرفنهم من رجال الأعداء إذا وقعوا في ساحة الحرب قتلى أو جرحى .
(٣) الإداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء.
(٤) الأيام الجاهلية صـ ١٦٢ .

لأن هذه الأراجيز والنداءات لا تقال عبثاً، بل لها وظيفة مهمة وهي إضفاء جو ملحمي على الموقف، كما تصبغ أعمال الأشخاص بأصباغ وأبعاد بطولية، لأن المواقف الحاسمة عندهم تُنطِق المرء بالكلام البليغ الموقع، فيصير حكمة أو مثلاً سائراً .

جاء في (الأيام) وتحديداً في يوم جَدُود[١] ما يؤكد ذلك حيث تقول الرواية (... فأتى صويخ بن ربيع بني منقر بن عبيد، فركبوا في الطلب، فلحقوا بكر بن وائل وهم قائلون، فما شعر الحارث بن شريك – وهو قائل في ظل شجرة – إلا بالأهتم بن سُمَي بن سنان بن منقر واقف على رأسه، فوثب الحارث إلى فرسه فركبه، وقال للأهتم : من أنت؟ قال: أنا الأهتم، وهذه منقر قد أتتك، فقال الحارث: فأنا الحارث بن شريك، وهذه بنو ربيع قد حويتها، فنادي الأهتم بأعلى صوته: ياآل سعد[٢]! ونادى الحارث: ياآل وائل[٣]!، وشد كل واحد منهما على صاحبه، ولحق بنو منقر فقاتلوا قتالاً شديداً، ونادت نساء بني ربيع: ياآل سعد، فاشتد قتال بني منقر لمَّا نادى النساء، فهزمت بكر بن وائل، وخلوا ما كان في أيديهم من السبي والأموال، ولم تكن لرجل منهم همة إلا أن ينجو بنفسه، وتبعتهم منقر فمن قتيل وأسير ...)[٤] .

إذن فقد أصبح صوت النساء بالنداء (يا آل سعد) هو صافرة الإنذار للرجال بأنهم إن تقهقروا انكشفت نساؤهم وحلائلهم للعدو، وصار صوتهن هو النفير للثبات وعدم التولي حتى يحصل النصر .

(١) يوم جدود: يوم لبني منقر (من تميم) على بكر (من ربيعة)، وجدود :اسم موضع في بلاد بني تميم قريب من حزن بني يربوع على سمت اليمامة فيه الماء الذي يقال له الكلاب (أيام العرب في الجاهلية صـ ١٧٨) وينظر أيضا (النقائض صـ ٣٣٦،١٢٤- العقد الفريد ٣٤٠/٣) .
(٢) إشارة إلى جدهم الأكبر سعد بن زيد مناة .
(٣) إشارة إلى جدهم الأعلى وائل .
(٤) أيام العرب في الجاهلية صـ ١٧٩ .

ومن منعة المرأة ومكانتها وخوفهم عليها؛ ربما كان أول ما يفكر فيه سيد القبيلة عند توقعه الغارة والحرب؛ هو أن يجعل النساء في حرز حريز، وحصن منيع ، فيحصنهن من كل ما من شأنه أن ينالهن بمكروه، وقد صورت الأيام ذلك كما جاء في يوم شعِْب جبلة[١] ،(... ودخلوا شعب جبلة، وحصنوا النساء والذراري والأموال في رأس الجبل ...)[٢] ، أو أن يجعلهن سيد القبيلة مركز الحمى الذي ينبغي أن يُمنع ويصان، فيجمعهن وراء المقاتلة حتى يكونوا درعاً لهن من العدو، فلا يفرون فتنكشف نساؤهم، بل ربما زاد القائد المحنك الخبير في الاحتياط لذلك فيقطع وكاء كل ناقة عليها ظعينة[٣] فلا تستطيع الدابة (الناقة) أن تفر من ساحة الوغى، ويبقى الرجل مضطراً لا خيار أمامه إلا الذود عن حريمه، جاء في يوم ذي قار[٤] :(... ولما تقارب الزحفان قام حنظلة بن ثعلبة فقال: إن النشاب[٥] الذي مع الأعاجم يفرقكم، فإذا أرسلوه لم يخطئكم، فماجلوهم اللقاء، وابدأوهم بالشدة، ثم قام إلى وضين[٦] راحلة امرأته فقطعه، ثم تتبع الظُعن يقطع وضنهن، فسقطن على الأرض' فقال: ليقاتل كل منكم عن حليلته، ثم ضرب قبة على نفسه ببطحاء ذي قار، وآلى لا يفر حتى تفر القبة ...)[٧].

(١) يوم شعب جبلة : يوم لعامر (من قيس) وحلفائهم على تميم وحلفائهم ، ينظر(أيام العرب في الجاهلية صـ ٣٤٩ .
(٢) الأيام الجاهلية صـ ٣٥١ .
(٣) الوكاء : الرباط، والظعينة : المرأة ما دامت في الهودج .
(٤) يوم ذي قار لبكر على العجم، ووقعة ذي قار كانت وقد بعث النبي - صلى الله عليه وسلم- وخبر أصحابه بها فقال: اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبي نصروا، وذي قار ماء لبكر قريب من الكوفة، ويعد هذا اليوم من مفاخر العرب .
(٥) النشاب : النبل .
(٦) الوضين : بطان عريض منسوج من سيور أو شعر ، وقيل لا يكون إلا من جلد .
(٧) أيام العرب في الجاهلية صـ ٣٠ .

وهكذا صورت الأيام المرأة في بعض صورها حصينة منيعة ، يبذل المرء نفسه– وليس أغلى منها عليه وليس بعدها شيء– من أجل الحفاظ عليها، لأنه يعلم أن الدفاع عن العرض –وكثيراً ما يتمثل العرض في الحريم– يساوي الحياة نفسها، وفقده يساوي الموت، فلا قيمة لحياة مذمومة يلام فيها المرء ويعاب ويذم كل لحظة لأنه لم يستطع حماية حرمه.

كذلك تطالعنا (الأيام)– سيما يوم ظهر الدهناء[1] بصورة أخرى للمرأة، صورة سامقة ، صورة مؤثرة من احترام الابن للأم: فهذا أوس بن حارثة –وقد عُرف بـ(أوس بن سعدى)– يريد أن ينتقم من بشر بن أبي خازم لأنه هجا أمه، وكان أوس بن حارثة ذا شأن عند النعمان؛ فحسده قوم من أهله، وقالوا للحطيئة: اهجه ولك ثلاثمائة ناقة، فامتنع،(فقال بشر بن أبي خازم[2]: أنا أهجوه لكم، فأعطوه النوق، وهجاه فأفحش في هجائه، وذكر أمه سعدى، فلما عرف أوس ذلك أغار على النوق فاكتسحها، وطلبه فهرب منه، والتجأ إلى بني أسد عشيرته، فمنعوه منه ورأوا تسليمه إليه عاراً، فجمع أوس قومه من طئ، وسار بهم إلى أسد، فالتقوا بظهر الدهناء، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت بنو أسد وقتلوا قتلاً ذريعاً، وهرب بشر، فجعل لا يأتي حيًّاً يطلب جوارهم إلا امتنع من إجارته على أوس، ثم نزل على جندب بن حصن الكلابي بأعلى الصمَّان[3]، فأرسل إليه أوس يطلب منه بشراً، فأرسله إليه، فلما قدم به على أوس أشار عليه قومه فدخل على أمه سعدى وقال: قد أتيتك بالشاعر الذي هجاك، وقد آليت لأقتلنه قتلة تحيين بها ، قالت: يا بني؛

(١) يوم لطئ على أسد، والدهناء : واد يشتمل على سبعة أجبل ويمر ببلاد بني أسد، ينظر الأيام الجاهلية صـ ١٣٧، وكذلك الكامل ٣٨٢/١ .
(٢) شاعر جاهلي من بني أسد .
(٣) جبل في بلد تميم .

أو خير من ذلك؟ قال: وما هو؟ قالت: إنه لم يجد ناصراً منك، ولا مجيراً عليك، وإنَّا قوم لا نرى في اصطناع المعروف من بأس، فبحقي عليك إلا أطلقته، ورددت عليه إبله، وأعطيته من مالك مثل ذلك، ومن مالي مثله، وأرجعه إلى أهله سالماً، فإنهم أيسوا منه، فإنه لا يغسل هجاءه إلا مدحه، فقبل ما أشارت به وخرج إليه، وقال يا بشر: ما تقول أني فاعل بك؟ فقال:

إنـــي لأرجـــو منـــك يـــا أوس نعمـــة وإني لأخرى منك يا أوس راهب
وإنـــي لأمحـــو بالـــذي أنـــا صـــادق بـــه كل مـــا قـد قلـت إذ أنـا كـاذب
فهـل نـافعي فـي اليـوم عنـدك أننـي سأشكر إن أنعمت والشكر واجب
فدىً لابن سعدى اليوم كل عشيرتي بنـــي أســـد أقصـــاهمُ والأقـــارب

فقال أوس: إن سعدى التي هجوتها؛ قد أشارت بكذا وكذا، وأمر بحل كتافه، وحمله على فرس جواد، ورد عليه ما كان أخذ منه، وأعطاه من ماله مائة من الإبل ، فرفع بشر يده إلى السماء وقال: اللهم أنت الشاهد عليَّ ألا أعود إلى شعر إلا أن يكون مدحاً في أوس بن حارثة)[١] .وجعل بشر يمدح أوساً بمكان كل قصيدة هجاه بها قصيدة .

فإذا كان للأنثى هذا القدر، وهذه المكانة، وتلك المنزلة عند الرجال، فلا غرابة أن يُعترف لها بحق الجوار والحماية، مثلها في ذلك مثل الرجال، جاء في "الأيام" وفي يوم الكديد[٢]:(... ثم لم يلبث بعد ذلك بنو مالك بن كنانة رهط ربيعة[٣] أن أغاروا على بني جشم رهط دريد، ففتكوا وأسروا وغنموا، وأسروا دريد بن الصِّمة، فأخفى نسبه، وبينما هو عندهم إذ

(١) الأيام الجاهلية صـ ١٣٩ .
(٢) يوم الكديد: يوم لبني سليم على كنانة، والكديد موضع على بعد اثنين وأربعين ميلا من مكة، أيام العرب في الجاهلية صـ ٣١٢ .
(٣) ربيعة بن مكدم الذي حمى الظعينة من دريد بن الصمة وفرسانه، وقتلهم إلا دريداً .

جاء نسوة يتهادين إليه، فصرخت امرأة منهن وقالت: هلكتم وأهلكتم، ماذا جرَّ علينا قومنا؟ هذا والله الذي أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة، ثم ألقت عليه ثوبها، وقالت: يآل فراس! إني جارة له منكم، هذا صاحبنا يوم الوادي، فسألوه من هو؟ فقال: أنا دريد بن الصمة! فمن صاحبي؟ قالوا: ربيعة بن مكدم! قال: فما فعل؟ قالوا: قتلته بنو سليم، قال: فمن الظعينة التي كانت معه؟ قالت المرأة: ريطة بنت جذل، وأنا هي، فحبسه القوم، وآمروا أنفسهم وقالوا: لا ينبغي أن تُكفر نعمة دريد عندنا ... فأصبح القوم، وتعاونوا بينهم، وأطلقوه، وكسته ريطة وجهزته، ولحق بقومه، ولم يزل كافاً عن غزو بني فراس حتى هلك) [1]

(١) الأيام الجاهلية صـ ٣١٨ .

المبحث الثاني : المرأة داعية (سبب) الحرب

هذا المبحث لصيق الصلة بالمبحث الأول لأن المرأة إذا كانت لها تلك المنزلة في ذلك المجتمع القبلي فربما قامت من أجلها حروب طاحنة يكتوي بلظاها كل من يقترب من رحاها، وذلك مثلما سبق في حرب الفجار بين المرأة العامرية وشباب قريش، ويوم البرادان بين حجر بن عمرو وزياد بن الهبولة، وكذلك مثل غزاة بسطام بن قيس لحي ضبَّة بقصد اختطاف أنثى يجعل منها وصيفة لأمه تخدمها، وهو ما حدث يوم الشقيقة[١] ، إذ صارت الأنثى والحصول عليها الشرارة التي قدحت لقيام الحرب (قال بسطام بن قيس سيد بني شيبان لأمه ليلى بنت الأحوص: إني أخدمتك من كل حي أمَة، ولست منهياً حتى أخدمك أمة من بني ضبة، فقالت له أُمه: يا بني لا تفعل؛ فإن بني ضبة حي لا يسلم ولا يغنم منهم من غزاهم ، ولكنه خرج لغزوهم ومعه رجل يزجر الطير من بني أسد بن خزيمة يسمى نقيداً، فلما دنا من نقا يقال له نقا الحسن ... ومالك بن المنتفق على فرس له جواد، فلما أشرف على النقا تخوف أن يروه فينذروا به، فاضطجع بطنه لظهره، وانحدر حتى أسهل بمستوى من الأرض، وقال: يا بني شيبان لم أر كاليوم في الغرة وكثرة النعم ... وركب بسطام وأصحابه وأغاروا على الإبل وطردوها ... ونجا مالك بن المنتفق على فرسه إلى قومه من ضبة واستصرخهم قائلاً: يا صباحاه[٢] فأجابوه ... فلما رأت ذلك بنو شيبان خلوا سبيل النعم، وولوا الأدبار، فمن قتيل وأسير ...)[٣] .

(١) يوم الشقيقة : يوم لضبة على شيبان ، والشقيقة : كل جمد بين حبلي رمل، وقيل الشقيقة: فرجة في الرمال تنبت العشب، ويسمى : نقا الحسن أيضا، والحسن اسم رمل بعينه .
(٢) يا صباحاه: كلمة تقولها العرب إذا صاحوا للغارة؛ لأنهم أكثر ما يغيرون عند الصباح ...(لسان العرب -ابن منظور ٢٤٧/٣ ط دار المعارف) .
(٣) أيام العرب في الجاهلية صـ ٣٨٤ .

وبصورة أخرى كانت الأنثى سبباً في الحرب ، إذ ربما غضب رجال الحي من محادثة شاب من حي آخر لنسائهم، فينتقمون منه، ويكون الخصام وتكون الحرب بين الحيين ، وهو الذي حدث في يوم سَحْبَل[1] ، حيث جاء فيه:(كان جعفر بن عُلبة يزور نساء من بني عقيل بن كعب، وكانوا متجاورين هم وبنو الحارث بن كعب، فأخذته بنو عقيل وكشفوا عورته، وربطوه إلى جمته ، وضربوه بالسياط وكتفوه، ثم أقبلوا به وأدبروا على النسوة اللاتي كان يتحدث إليهن على تلك الحال ليغيظوهن، ويفضحوه عندهن، فقال لهم: يا قوم؛ لا تفعلوا فإن هذا الفعل مُثلة، وأنا أحلف لكم بما يثلج صدوركم ألا أزور بيوتكم أبداً ، ولا ألجها ، فلم يقبلوا منه ، قال: فإن لم تفعلوا ذلك فحسبكم ما قد مضى، ومُنُّوا عليَّ بالكف عني، فإني أعده نعمة لكم، ويداً لا أكفرها أبداً، أو فاقتلوني وأريحوني، فأكون رجلاً آذى قوما في دارهم فقتلوه، فلم يفعلوا وجعلوا يكشفون عورته بين أيدي النساء، ويضربونه، ويغرون به سفهاءهم، حتى شفوا أنفسهم منه، ثم خلوا سبيله ... ثم مضت أيام ، وأخذ جعفر أربعة رجال من قومه، ورصد العقيليين حتى ظفر برجل ممن كان يصنع به ذلك، فقبضوا عليه، ففعلوا به شراً مما فعل بجعفر ثم أطلقوه، فرجع إلى الحي فأنذرهم، فتبعهم سبعة عشر فارساً من بني عقيل حتى لحقوا بهم بوادي (سحبل) فقاتلهم جعفر ، وقَتل فيهم حتى لم يبق من العقيليين إلا ثلاثة نفر ...)[2].

ولا يغيب عن أذهاننا أن من بين أسباب حرب ذي قار –حسب ما نقله الرواة في مقدمة الوقعة– رغبة كسرى في ضم بعض النساء إلى

(١) يوم سحبل : يوم لبني الحارث بن كعب (بطن من كهلان) على بني عقيل بن كعب (بطن من قيس)، وسحبل موضع في ديار بني الحارث بن كعب .
(٢) أيام العرب في الجاهلية صـ ٨٥ .

حريمه، وهؤلاء النسوة ذوات الصفة المخصوصة المحببة لملوك الأعاجم والمكتوبة عندهم؛ كانوا لا يعتقدون أنها موجودة في نساء العرب فلا يطلبونها عندهم، حتى أدخل عليه (كسرى) بعضهم أن نسوة عند النعمان –عامله– يتصفن بهذه الصفات، فطلبهن كسرى عنده،(وكانوا يبعثون في طلب من يكون على هذه الصفة من النساء، فإذا وجدت حملت إلى الملك، غير أنهم كانوا لا يطلبونها في أرض العرب ، ولا يظنونها عندهم ... ودخل إليه زيد بن عدي وهو في ذلك القول ، فخاطبه فيما دخل إليه فيه، ثم قال: إني رأيت الملك قد كتب في نسوة يُطلبن له، وقرأت الصفة، وقد كنت بآل المنذر عارفاً وعند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة ...)[١]، ذلك ما أخبر به زيد بن عدي كسرى ليكيد للنعمان ، وكان النعمان قد قتل أباه، وعدي يعلم أن النعمان كغيره من العرب لا يسلم نساءه، فإذا امتنع قامت الحرب، وبالفعل التجأ النعمان إلى بكر بن وائل واستجار بهانئ بن مسعود الشيباني، وأودعه حرمه، فقال هانئ : (قد لزمني ذمامك، وأنا مانعك مما أمنع نفسي ، وأهلي وولدي منه ... فقال: كيف بحرمي؟ قال: هن في ذمتي لا يخلص إليهن حتى يخلص إلى بناتي ...)[٢].

وهكذا نرى أن حروب الأيام تقوم لأسباب منها دوافع نفسية تتعلق بمفهوم العرض والشرف المنوط بالأنثى ، وعليه فقد ظهرت الأنثى في صورة السبب المحرك لبعض حروب الأيام .

(١) السابق صـ ١٩
(٢)السابق صـ ٢٣ .

وأيضا – فيما يتعلق بخصوص الدفاع عن العرض المتمثل في الأنثى سواء كانت من الأقرباء أو من الأجوار، ولحماية الشرف المداس والكرامة المقهورة قامت حرب (طسم وجديس) الأسطورية – وأسطوريتها لا تمنع أنها قيست على واقع اجتماعي ممكن سواء في الجاهلية أو حتى في غيرها – فقد ألهبت "عفيرة" قومها بكلمات فثأروا لهذه العروس الأبية الجموح، ولذلك سموها "الشموس" وهنا نعود إلى السبب في يوم جديس[١]:

(كانت منازل طسم في موضع اليمامة، وكان يملكهم عِمليق، وكانت معهم جديس ، ولكن عمليقا في أول مملكته قد تمادى في الظلم والغَشْم بغير الحق، وكانت امرأة من جديس يقال لها هزيلة ، ولها زوج يقال له ماشق، فطلقها وأراد أخْذ ولدها منها، فخاصمته إلى عمليق ... فأمر بالغلام أن يُنزع منهما جميعا، ويُجعل في غلمانه فقالت ... فلما سمع عمليق قولها أمر ألا تزوج بكر من جديس وتهدى إلى زوجها حتى يراها قبل زوجها ، فلقوا من ذلك بلاءً وجهداً وذلاً، ولم يزل يفعل هذا حتى زوجت الشموس، فلما أرادوا حملها إلى زوجها انطلقوا بها إلى عمليق ومعها القيان يتغنين ... فدخلت عليه، ثم خلى سبيلها ، فخرجت إلى قومها شاقة درعها[٢] وهي في أقبح منظر ، وقالت تحرض أهلها ... فلما سمع أخوها الأسود– وكان سيداً مطاعاً – قال لقومه: يا معشر جديس ! إن هؤلاء القوم ليسوا بأعز منكم في داركم إلا بما كان من ملك صاحبهم علينا وعليهم، ولولا عجْزُنا وادِّهاننا[٣] ما كان له فضل علينا، ولو امتنعنا لكان لنا منه النصَف ، فأطيعوني فيما آمركم به فإنه عز الدهر ، وذهاب

(١) يوم جديس: يوم لجديس على طسم، وطسم وجديس من العرب البائدة . ينظر(الكامل ١/ ٢٠٣- خزانة الأدب للبغدادي ٢/٢٣٥) .
(٢) الدرع : القميص .
(٣) الادهان : إظهار خلاف ما يضمر، والغش .

ذل العمر ، واقبلوا رأيي ، وقد أحمى جديساً ما سمعوا من قولها ، فقالوا: نطيعك ... حتى إذا أخذوا مجالسهم ، ومدوا أيديهم إلى الطعام؛ أخذوا سيوفهم من تحت أقدامهم ، فشد الأسود على عمليق فقتله، وكل رجل منهم على جليسه حتى أماتوهم ، فلما فرغوا من الأشراف ؛ شدوا على السفلة فلم يدعوا منهم أحداً ...)[١].

وكون المرأة بيضة الحمى، ومركز الحرمة ؛لا يعني أنها مستضعفة مقهورة من الرجال، بل ربما كان دليل عزتها – كما سبق– ومن أجل أن تظل عزيزة ممنعة تصبح بطريقة أو بأخرى سبباً في الاقتتال، كما فعل ربيعة بن مكدم في يوم الكَدِيد –السابق ذكره–، إذ يعود ربيعة من سفره إلى مواطن كنانة ومضاربهم، ومعه ظعينة في خفارته (حراسته وذمته وعهده وأمانه) وحده لا رفقة معه، فيعترضه دريد بن الصمة[٢] في ثلاثة فرسان من بني جشم، وكان دريد قد خرج والفرسان للغارة على بني كنانة، فيأمر دريدُ ربيعةَ على لسان فرسانه أن يخلي عن الظعينة وينجو بنفسه، فيمتنع ربيعة عن ذلك غير آبه بصياحهم وهو يرجز ويقول :

خـــلِّ ســـبيل الحـــرة المنيعـــة إنـــك لاق دونهـــا ربيعـــة

ثم يصرعهم واحدا واحدا، حتى ارتاب دريد في إبطاء أصحابه بالظعينة إليه ، ظناً منه أنهم هربوا بها دونه ، فيلحق بربيعة فيجده قد صرع الفرسان ولا رمح معه، فيعطيه رمحه، ويقول له: (أيها الفارس إن مثلك لا يُقتل ...)[٣]، ثم يعود دريد ليثبط أصحابه عن ربيعة الذي أنشد يقول في ظعينته:

(١) أيام العرب في الجاهلية صـ ٣٩٦ .
(٢) دريد بن الصمة : سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم ، كان مظفراً ميمون النقيبة، غزا نحو مائة غزاة ما أخفق في واحدة منها، وأدرك الإسلام ولم يسلم .
(٣) أيام العرب في الجاهلية صـ ٣١٣ .

سيري على رسلك سير الآمن سير رداح[1] ذات جأش ساكن

إن انثنائي دون قرني[2] شائني أبلي بلائي وانظري وعايني

ولما كانت المرأة سبباً من أسباب اشتعال أوار الحروب؛ فلا جرم أن نجد الرجل يرجع إلى رأيها، ويستشيرها في الملمات، ولنا في لقيط بن زرارة مع ابنته "دختنوس" المثل ، إذ جاء في يوم شعب جبلة ما نصه: (... فقالت له ابنته دختنوس، وكان لقيط يصحبها في غزواته، ويرجع إلى رأيها ...)[3].

(١) امرأة رداح: عجزاء ثقيلة الأوراك تامة الخلق .
(٢) القرن : الكفء .
(٣) السابق صـ ٣٥٥ .

المبحث الثالث : المرأة بين رابطتين

ترسم قصص وروايات الأيام في الجاهلية صورة لبعض النساء الممزقات بين رابطتين والمذبذبات بين عاطفتين :

الأولى: رابطة الأصل والنسب والأهل والتضامن مع الأخوة، **والثانية:** رابطة الزوجية والولاء للزوج.

فحين تكون الأنثى تحت رجل أيما كان شأنه، ويقع بين حليلها وبين أهلها وأخوتها ما يوجب العداوة أو الاقتتال تكون المرأة موزعة النفس، مشتتة الخاطر، مضطربة الكيان ، أيكون ولاؤها لأهلها وحيها، أم يكون ولاؤها لزوجها وولى نعمتها؟.

فمنهن من تغلب علاقة الزوجية على علاقة الأهل والحي، ومنهن من ينزعها عرق إلى حيها وأهلها.

فمن الصورة الثانية: صورة جليلة بنت مُرة حين صبرت كثيراً على استفزاز زوجها(كليب وائل) لها حينما سألها مراراً على سبيل الزهو بنفسه، أو حتى الظلم والحسد والغيرة: هل تعلمين على الأرض أمنع مني ذمة؟ فتسكت ولا تجيب ، ثم يعيد عليها الثانية: فتسكت أيضا ، ثم يعيد الثالثة : فتنفجر قائلة : نعم أخي جساس وندمانه ابن عمه عمرو المزدلف[١]، وتمضي مدة ثم يعود فيسألها علّها تقول قولاً آخر: من أعز وائل؟ فتجيب: أخواي جساس وهمام، ثم تمضي مدة أخرى ويقوم كليب في تلك المدة بما يختبر به عزة وقوة ورد فعل أخوى جليلة اللذين تفضلهما على زوجها، ثم يعود فيسألها بعد أن أغضوا على ما فعل (من قتل فصيل ناقة البسوس، ثم رمى الناقة نفسها بالسهم) من أعز وائل ؟

(١) السابق صـ ١٤٥ .

فقالت: أخواي فيضمرها في نفسه ويسرها ويسكت[١]، فجليلة بنت مرة امرأة غلبت وفضلت أهلها وحيَّها على زوجها (كليب وائل) وهو من هو حينذاك، ملك متوج لا ترد له كلمة، لا يجير عليه أحد، وله حمى لا يستطيعه كائن من كان، إن قال صيد كذا في جواري لا يصاد .... إلخ ، ومع ذلك تصر زوجته في المرات الثلاث التي يسألها فيها من أعز وائل ؟ هل على الأرض أمنع مني ذمة ؟ على إجابة واحدة هي : أخواي.

ويدخل في تلك الصورة –أيضا– صورة المرأة التي تحتال على زوجها إذا علمت منه أنه يضمر الشر لأهلها وحيها ، أو ينتوى غزاتهم، حينئذ تحتال المرأة لإنذار قومها ليتجهزوا لحرب وشيكة، أو ليستعدوا وليأخذوا حذرهم ، وذلك ما فعلته سلمى بنت عمرو زوجة أُحَيحة بن الجُلاح في يوم كعب بن عمرو: (تزوج كعب بن عمرو المازني الخزرجي امرأة من بني سالم[٢]، وكان يختلف إليها ، فقعد له رهط من بني جِحْجي من الأوس بمرصد فضربوه حتى قتلوه أو كادوا ، فلما بلغ ذلك أخاه عاصم بن عمرو خرج وخرج معه بنو النجار[٣]، وأرسل إلى بني جحجي يؤذنهم بحرب ، فتلاقوا بالرحابة[٤]، واقتتلوا اقتتالا شديداً، وانهزمت بنو جحجي، وكان معهم أحيحة بن الجلاح الأوسي، فطلبه عاصم فأدركه وقد دخل حصنه، فرماه بسهم فوقع في باب الحصن، ورجع عاصم وأصحابه ، ومكثوا أياماً، ثم إن عاصماً طلب أحيحة ليلاً ليقتله في داره ... وكان أحيحة إذا أمسى جلس بحذاء حصنه الضحيان ، ثم أرسل كلاباً له تنبح دونه على من يأتيه ممن لا يعرف، حذراً من أن يأتيه عدو

(١) السابق صـ ١٤٥، حرب البسوس .
(٢) بنو سالم : قبيلة من الخزرج .
(٣) بنو النجار: قبيلة من الخزرج (الأنصار) .
(٤) الرحابة : حصن بالمدينة .

يصيب منه غرة، فأقبل عاصم بن عمرو يريده في مجلسه ذلك ليقتله بأخيه، وقد أخذ معه تمراً، فلما نبحته الكلاب حين دنا منها ألقى لها التمر فوقفت، فلما رآها أحيحة قد سكنت حذر، فقام فدخل حصنه ، ورماه عاصم بسهم فأحرزه الباب ، فوقع السهم بالباب ، فلما سمع أحيحة وقع السهم صرخ في قومه، فجرى عاصم وأعجزهم حتى أتى قومه.

ثم إن أحيحة جمع لبني النجار، وأراد أن يغترهم ، فواعده قومه لذلك، وكانت عند أحيحة سلمى بنت عمرو[١]، إحدى نساء بني النجار ، وكان له منها ابنُه عمرو بن أحيحة، وهو يومئذ فطيم أو دون الفطيم، فلما رأت عزم أحيحة على غزو قومها ، عمدت إلى ابنها فربطته بخيط، حتى إذا أوجعت الصبي تركته، فبات يبكي وهي تحمله، وبات أحيحة معها ساهراً يقول : ويحك ! ما لابني؟ فتقول : والله ما أدرى ماله، حتى إذا ذهب الليل أطلقت الخيط عن الصبي فنام، ولما هدأ الصبي قالت : وارأساه! فقال أحيحة: هذا والله ما لقيت من سهر هذه الليلة، وبات يعصِب لها رأسها ويقول : ليس بك بأس، حتى إذا لم يبق من الليل إلا أقله قالت له: قم فإني أجدني صالحة، وقد ذهب عنى ماكنت أجده – وإنما فعلت ذلك ليثقل رأسه وليشتد نومه على طول السهر – فلما نام قامت وأخذت حبلاً وأوثقته برأس الحصن ثم تدلت منه ، وانطلقت إلى قومها فأنذرتهم ، وأخبرتهم بالذي أجمع هو وقومه من ذلك ، فحذر القوم وأعدوا واجتمعوا، فأقبل أحيحة فوجد القوم على حذر قد استعدوا، فلم يكن بينهم كبير قتال، ثم رجع أحيحة، وقد فقد زوجته، ففطن لحذر القوم وعلم أن سلمى قد خدعته)[٢].

(١) هي أم عبد المطلب بن هاشم، خلف عليها هاشم بعد أن طلقها أحيحة، وكانت امرأة شريفة، لا تتزوج الرجال إلا وأمرها بيدها، إذا كرهت من رجل شيئاً تركته .
(٢) أيام العرب في الجاهلية صـ ٧٠ .

فالمرأة هنا غلَّبت رابطة الأهل والحي والقرابة على رابطة الزوجية، أبقت على الأهل دون الزوج –لا سيما أن أمرها بيدها.

ومن الصورة نفسها التي تغلب فيها الأنثى رابطة الأهل ؛ ما فعلته هند بنت النعمان، إذ نبهت العرب باستعداد كسرى لحربهم في (ذي قار): (.... وكان كسرى قد أوقع قبل ذلك ببني تميم يوم الصفقة[١]، فالعرب وجلة خائفة منه، وكانت هند بنت النعمان في بني سنان ، فلما علمت بمسير جموع كسرى قالت تنذر العرب :

ألا أبلـــغ بنـــي بكـــر رســـولاً فقـــد جـــد النفـــير بعنفقيـــر[٢]

فليـت الجـيش كلهـم فـداكم ونفســي والســرير وذا الســرير

كـأني حـين جـد بهـم إلـيكم معلـــقة الـــذوائب بـــالعبور[٣]

فلـو أنـــي أطقـت لـذاك دفعـاً إذن لدفعتـــه بـــدمى وزيـــري[٤]

أما الصورة الأولى : والتي تتغلب فيها (عند الأنثى) رابطة الزوجية على رابطة الأهل والحي فوجدت لها في الأيام (الجاهلية) مثالين، الأول : لامرأة من بني سعد في عبس تخبر زوجها وقومه (من عبس) أن أهلها من (بني سعد) مع ملك هجر تغير عليهم، وكان بنو عبس قد ارتحلوا عن اليمامة حتى نزلوا ببني سعد بن زيد مناة ، فمكثوا فيهم زماناً (... ثم إن بني سعد أتوا ملك هجر ، فقالوا له: هل لك في مهرة شوهاء، وناقة حمراء ، وفتاة عذراء ؟ قال : نعم، قالوا : بنو عبس غارّون[٥]، تغير عليهم مع جندك وتسهم لنا من غنائمهم، فأجابهم ، وفي

(١) يوم الصفقة: يوم لكسرى على تميم، وسمي الصفقة لأن كسرى أصفق الباب على بني تميم في حصن المشقر بالبحرين .
(٢) العنفقير: الداهية .
(٣) العبور : نجم في السماء يلي الجوزاء .
(٤) الأيام الجاهلية صـ ٢٧ ، والزير : ما استحكم فتله من الأوتار .
(٥) غارون : غافلون .

بنى عبس امرأة من سعد ، فأتاها أهلها ليضموها، وأخبروها الخبر ، فأخبرت به زوجها ...)[١].

فالمرأة هنا أتاها أهلها ليضموها قبل الغارة على بني عبس، ظناً منهم أنها ترحل معهم وتترك زوجها وحيّه عرضة للقتل والأسر لأنهم غافلون غير مستعدين للهجوم، بيد أنها فضلت الإبقاء على رباط الزوجية دون الأهل وأخبرت زوجها الخبر.

أما المثال الثاني : فهي المرأة العبسية التي نبهت زوجها الذبياني إلى وجود قِرْواش بن هنى العبسي أحد رؤوس الأعداء بين أسراه – دون أن يعلم من هو – فقتله لما أخبرته به (... ثم إن ذبيان غزوا بني عامر بن صعصعة وفيهم بنو عبس في يوم شعواء، فاقتتلوا وهزمت عام ، وأسر طلحةُ بن سنان قرواش بن هني العبسي، ولم يعرفه ، فنسبه فكنى عن نفسه، فلما قدم به إلى أهله، وانتهى به إلى أدنى البيوت عرفته امرأة من أشجع أمها عبسية، فقالت لزوجها: إني أرى قرواش مع طلحة بن سنان ، فقال : ومن أين تعرفينه ؟ قالت: يتمت أنا وهو من أبوينا فربانا حذيفة في أيتام غطفان، فخرج زوجها حتى أتى خريم بن سنان فقال: أخبرتني امرأتي أن أسير طلحة أخيك قرواش بن هنى، فأتى خريم طلحة فأخبره، فقال : ومن أين عرفت؟ فقال : امرأة فلان عرفته ، فتعال فاسمع كلامها ، فأتوها، فقال طلحة: ما علمك أنه قرواش؟ قالت: هو، وبه شامة في موضع كذا، فرجعوا إليه ففتشوه، فوجدوا الذى ذكرت، قال قرواش : من عرفني ؟ قالوا : فلانة ! قال : رب شر حملته عبسية : ودفع إلى حصن فقتلوه)[٢].

فمع كون المرأة عبسية إلا أنها في بني ذبيان ، ودلت على ابن حيها وقومها فقتل.

(١) الأيام الجاهلية صـ ٢٦٦ (يوم داحس والغبراء) وما تبعه من أيام كالهباءة وغيره .
(٢) أيام العرب في الجاهلية صـ ٢٦٩ .

المبحث الرابع : المرأة الجائزة

على غير المألوف تطالعنا (الأيام الجاهلية)، بصورة متفردة للأنثى، صورة لأول مرة تكون فيها الأنثى جائزة وهدية للبطل المقدام المغوار الذي يقدر على دفع المهر الذي يطلبه أبوها (الملك) منه، هذه الصورة الوحيدة المتفردة – ربما – نجدها في يوم حليمة[1] ، وهي صورة تُتخذ فيها المرأة وسيلة إغراء – إن صح التعبير – ووسيلة حث ودفع وتشجيع ، صورة تكون فيها الأنثى جائزة لمن يستحقها من الأبطال والجنود حتى يستبسلوا في القتال ، على طريقة ما نجد صداه في القصص الشعبي الذي يصل إلى حد الخيال ، ذلك حين يعد الملكُ البطل بـ(ابنته) الجميلة المنعمة، أو يعده بـ(ابنته ونصف مملكته) فيصبح أميراً وصهراً لملك ، ويصير من أغنى الناس ويصير سيداً بعد أن كان من السوقة أو من الأغفال، وذلك بشرط أن يقدم المقابل لذلك وهو المهر المتمثل في الفوز في المعركة، والظفر بخصم وعدو الملك .

وفي يوم حليمة كان الإغراء ذا أبعاد عاطفية، بل وحتى أبعاد "جنسية "، فالأميرة "حليمة" ابنة الملك تتضح العطور والطيب على الجنود المقاتلين، فيقترن الطيب بحلم الفوز بالأميرة زوجة ، وبمصاهرة الملك، فتثور الحمية ، وتتوقد الشراسة والشجاعة في قلوب الجند، (لما تولى المنذر بن المنذر بن ماء السماء مُلك الحيرة، واستقر في ملكه؛ سار إلى الحارث الغساني طالبهاً بثأر أبيه عنده ، وبعث إليه : إني قد أعددت لك الكهول على الفحول، فأجابه الحارث: قد أعدت لك المرد على الجرد، وسار المنذر حتى نزل بمرج حليمة ، وسار إليه الحارث أيضا ، ثم

(١) يوم حليمة: يوم للحارث الأعرج بن جبلة، ملك العرب بالشام، على المنذر بن المنذر بن ماء السماء، ملك العرب بالحيرة، وحليمة هي بنت الحارث، وبها ضُرب المثل في ذاك اليوم، يقولون : (ما يوم حليمة بسر). ينظر (الكامل ٣٢٨/١- معجم البلدان ٣٣٠/٣- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ٢٤٨- مجمع الأمثال ٢٠٢/٢- تاريخ العرب قبل الإسلام لجورجي زيدان ١٩٣) .

اشتبكوا في القتال ، ومكثت الحرب أياماً ينتصف بعضهم من بعض.

فلما رأى ذلك الحارث قعد في قصره، ودعا ابنته حليمة، وكانت من أجمل النساء ، فأعطاها طيباً وأمرها أن تطيب من مر بها من جنده، فجعلوا يمرون بها وتطيبهم، ثم نادى: يا فتيان غسّان؛ من قتل ملك الحيرة زوجته ابنتي ، فقال لبيد بن عمرو الغساني لأبيه : يا أبت؛ أنا قاتل ملك الحيرة أو مقتول دونه لا محالة، ولست أرضى فرسي، فأعطني فرسك ، فأعطاه فرسه، فلما زحف الناس واقتتلوا ساعة ؟ شد لبيد على المنذر فضربه ضربة، ثم القاه عن فرسه، وانهزم أصحاب المنذر من كل وجه، ونزل لبيد فأحتز رأسه ، وأقبل به إلى الحارث وهو على قصره ينظر إليهم، فألقى الرأس بين يديه، فقال له الحارث: شأنك بابنة عمك[١]، فقد زوجتكها ، فقال : بل أنصرف فأواسي أصحابي بنفسي ، فإذا انصرف الناس انصرفت ...)[٢] .

وبعد .. فإن (أيام العرب في الجاهلية) تزخر بصور متعددة للأنثى (ابنة وأخت وزوجة وأم ...الخ) فكما رأينا الصور السابقة نجد صوراً أخرى منها :

وصورة الأم التي يفيض حبها لابنها ، فتفديه بأغلى فداء عرفته العرب، وهو ما فعلته أم بسطام بن قيس الشيباني في يوم الغبيط[٣]، حين أُسر ابنها بسطام لدى عتيبة بن الحارث (.... فانصرف عتيبة إلى عمرو بن جندب، فإنه لفي بعض الطريق إذ نظر بسطام إلى مركب أم عتيبة فقال : يا عتيبة، أهذا مركب أمك ؟ قال : نعم ، قال : ما رأيت كاليوم قط مركب أم سيد مثل هذا إن حِدْج[٤] أمك لرث ، قال عتيبة ألك

(١) يريد حليمة .
(٢) أيام العرب في الجاهلية صـ ٥٤ .
(٣) يوم الغبيط: يوم لشيبان (من ربيعة) على يربوع (من تميم)، والغبيط: ويسمى غبيط المدرة : أرض لبني يربوع، وسمي هذا اليوم -أيضا- بيوم الثعالب، ويوم أعشاش، ويوم صحراء فلج . ينظر (الأيام الجاهلية ١٩٧- الكامل ٣٦٥/١- العقد الفريد ٣٣٨/٣- النقائض ٧٥).
(٤) الحدج : مركب من مراكب النساء.

إرث ؟ قال : نعم، قال عتيبة: واللات والعزى ؛ لا أطلقك حتى تأتيني أمك بكل شيء ورَّثك قيس [١] بن مسعود، وبجملها وحِدجها[٢] ، فأتته أم بسطام على جملها وحدجها، وبثلاثمائة بعير[٣] ، وفدى نفسه بها، على أن يجز ناصيته ويعاهده ألا يغزو بني شيبان ...)[٤].

كذلك نجد صورة البنت أو الأخت أو الزوجة أو الأم الثكلى ترسل الزفرات وتعدد مناقب الأب أو الأخ أو الزوج أو الابن كما فعلت – أيضا – أم بسطام بعد يوم الشقيقة. كذلك نجد المرأة الشاعرة التي ترثي عزيزاً لديها كما فعلت الخنساء في مراثيها لأخويها بعد يومي حوزة.

لكننا .... وسط هذه الصور جميعاً للمرأة وللأنثى عموماً في المشهد النثري الجاهلي ؛ فإننا حين نقلب صفحات كتاب (أيام العرب في الجاهلية) لا نجد صورة للمرأة التي تشفق على زوجها – مثلا – من القتل فتظهر بصورة الأنثى الضعيفة أو الخائفة أو الوجلة ؛ التي تثنى حليلها عن الذهاب إلى الحرب خوفاً عليه من القتل – كما سبق – بل على العكس كانت المرأة تدفع زوجها إلى الحرب أو حتى إلى الصلح دفعاً وتشجعه فلا يجبن ، حتى لو كان ذلك يوم عرسها ، من ذلك ما فعلته بهيسة بنت أوس بن حارثة الطائي ، فبعد زواجها من الحارث بن عوف ، وحملها إليه في حماه ، كانت حرب داحس والغبراء قد أشتد أوارها بين عبس وذبيان ، فعندما جاء اليها ليلة عرسه منها ، ورأته مرتدياً مطارف العرس ، قالت : والله لقد ذكرت من الشرف مالا أراه فيك ، قال : وكيف ؟! قالت : أتفرغ للنساء والعرب يقتل بعضهم بعضاً ، قال : فيكون ماذا ؟ قالت : أخرج إلى هؤلاء القوم ...)[٥].

(١) والد بسطام .
(٢) كان حدج أم بسطام كبيراً ذا ثمن كثير، وهذا الذي أراد بسطام ليرغب فيه فلا يقتله .
(٣) لم يكن عربي أغلى من بسطام فداءً .
(٤) أيام العرب في الجاهلية صـ ١٩٩ .
(٥) الأغاني ٩/ ١٤٢

خاتمــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ...

فأي جديد في هذا البحث؟ أما الجديد فبعضه حقائق جزئية متناثرة في غضونه لا حاجة لتكرارها، وبعضه حقائق عامة يمكن ذكر بعضها ومنها:

- كانت الصورة التي رُسمت للمرأة العربية في الجاهلية مضطربة متناقضة ، فرسمت لها صوراً استمدت من كتاب جمع أيام العرب في الجاهلية ، وجليت مكانتها في الحياة في تلك الفترة: في الأسرة وفي القبيلة وفي المجتمع ،في السلم وفي الحرب .
- اتضح أن بعض العرب من الشعراء أو الملوك ينتسبون إلى أمهاتهم تشريفاً وتكرمة ، كذلك كان كثير منهم يحبون بناتهم وينزلون على مشورتهن؛ وهذا يرد الرأي الشائع القائل إن العرب جميعاً كانوا يبغضون البنات ويئدونهن .
- عدم صحة الرأي الذي كان شائعاً عن المرأة الجاهلية أنها كانت في الحضيض، تسام الخسف، وتعامل معاملة العبيد، إذ لم تأت صورة من الصور التي صورها البحث للمرأة بهذه الكيفية.

أما كتاب (أيام العرب في الجاهلية) فهو جزء من الرصيد الثقافي العربي، لما في نصوصه من منهجية خاصة اتبعها الرواة في تأليف هذه النصوص، وفي رصدها وتصويرها للمجتمع الجاهلي في سلمه وحربه على ما تقتضيه طبيعة البداوة، ولما لها من شأن كبير عند المؤرخين العرب الأولين، الذين كانوا يصعدون في تأريخهم لحياة العرب إلى البشرية الأولى، إلى العماليق وعاد وثمود، ويعرِّجون نزولاً على أخبار طسم

وجديس وغيرهما من القبائل التي بادت، ثم يهتمون بالقبائل القائمة فيدرجون أيامها في صلب التاريخ ويفصلون أحداثها بنفس العناية التي يولونها للفتوحات والمغازي الإسلامية، أو حتى أخبار العصور والدول المتقدمة من عمر الإسلام كالدولة الأموية والعباسية.

إلا أن اهتمام المؤرخين بروايات الأيام لا يجبرنا –بالضرورة– على تقبلها منهم كما وردت، وتصديق كل ما ترويه لنا من أسباب الحروب أو نتائجها، وتشعب الأحداث وتفاصيلها، كما لو كانت تاريخاً مرتباً مضبوطاً، في نصوص شبه تاريخية تقع في مرحلة وسط بين الأسطورة والحقيقة، لأنها –كثيراً– تميل إلى الإبهام والتضخيم' إلا أنها –في المجمل– تعطينا صورة أولية عن المجتمع الجاهلي ، هذه الصورة تواصلت ملامحها في المجتمع الإسلامي الأول بعد وفاة النبي –صلى الله عليه وسلم–مباشرة، حين عادت العصبيات القديمة إلى شدتها، وصار التنافس على الحكم يوقظ ويغذي الإحن والأحقاد الدفينة التي كانت تمزق العرب بين قيسية ويمنية، وتميمية وبكرية ....إلخ .

ومن الجدير بالذكر هنا أن كل ما جاء في سطور وصفحات البحث من ملاحظات ، في أدب أيام العرب بصفة عامة؛ لم يكن ليتسم بسمة الإحاطة بكل ما في الأيام ، وإنما هي إشارات ربما تلفت النظر إلى ضرورة وجود اهتمام من الباحثين بهذه النصوص لاستخراج ما فيها من زوايا تستحق الدراسة ..

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

١- الأعلام – خير الدين الزركلى ط دار العلم للملايين– بيروت.

٢- أعلام النساء – عمر رضا كحالة ط دمشق ١٩٤٠م .

٣- الأغاني – أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني ط دار الكتب العلمية بيروت.

٤- أيام العرب في الجاهلية – محمد أحمد جاد المولى ، علي محمد البجاوى، محمد أبو الفضل إبراهيم– ط– المكتبة العصرية

٥- تفسير الكشاف – أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ط– مصطفى البابي الحلبي – القاهرة ١٩٦٦ .

٦- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب –عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري أبو منصور –تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم –ط دار المعارف.

٧- دائرة المعارف الإسلامية (ميتودش صاحب فصل أيام العرب) ط الشارقة عام ١٩٩٨م.

٨- ديوان عمرو بن كلثوم، جمع وتحقيق وشرح إميل بديع يعقوب ، ط ١ الناشر دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٩١م .

٩- العرب قبل الإسلام – جورجي زيدان ط دار الكتاب العربي – بيروت.

١٠- العقد الفريد – أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي ، ط – دار الفكر– بيروت .

١١- الكامل في التاريخ – أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري، ط دار الكتاب العربي – لبنان .

١٢- لسان العرب – جمال الدين بن منظور الإفريقي ، ط دار المعارف – مصر.
١٣- مجمع الأمثال – أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط – دار المعرفة لبنان ٢٠٠٥ .
١٤- معجم البلدان – شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، ط– دار صادر – بيروت ١٩٩٣ .
١٥- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام – جواد علي ط دار السافي ط٤ عام ٢٠٠١م
١٦- نقائض جرير والفرزدق – أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري ، وضع حواشيه خليل عمران المنصور ،ط – دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٨ .